

في سبيل
مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
لِلشُّؤْنِ السَّجْنِيَّةِ



**MENA
PRISON
FORUM**
مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
لِلشُّؤْنِ السَّجْنِيَّةِ

ifa Institut für
Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt

Amman
للدراسات والبحوث
Documentation & Research

صِفْرٌ عَنِ عَمْدٍ

في سبيل
مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
لِلشُّؤْنِ السَّجْنِيَّةِ

أُمَمٌ لِلتَّوْتِيْقِ وَالْأَبْحَاثِ
٢٠١٩/٢٠١٨

٩٦١ ١ ٥٥٣٦٠٤ + | صندوق بريد: ٢٥ - ٥ الغبيري، بيروت - لبنان
www.umam-dr.org | www.memoryatwork.org



إن الآراء الواردة في هذه المطبوعة التي كان إنجازها ونشرها بدعم من «معهد العلاقات الثقافية الخارجية (ifa)» - (الممول من وزارة الخارجية الألمانية) - تُعبّر، حصراً، عن وجهة نظر أُمَم للتوثيق والأبحاث؛ وعليه فهي لا تُلزِم المعهد، بأي شكل من الأشكال، ولا تعكس، بالضرورة، مُمَارَئَتَهُ المُؤَسَّسَاتِيَّةَ مِنَ الْمَسَائِلِ مَوْضُوعِ الْبَحْثِ وَالرَّأْيِ.



|| وَبَقِيَ الْآنَ أَنْ أُذَكِّرْكُمْ مَا اشْطَطْتُمْ بِهِ
مِنَ الظُّلْمِ والطُّغْيَانِ والجَوْرِ والعُدْوَانِ على
أخي المَرْحُومِ أسعد، إِذْ أودَعْتُمُوهُ السَّجْنَ
[...]. نَحْوَ سِتِّ سِنِينَ. وَبَعْدَ أَنْ أَدْفَنْتُمُوهُ
جَمِيعَ ضُرُوبِ الدُّلِّ وَالْهَوَانِ والبُؤْسِ وَالصَّنَكِ
في صَوْمَعَةٍ صَغِيرَةٍ لَزِمَهَا، فَلَمْ يَكُنْ يَخْرُجُ
مِنْهَا إِلى مَوْضِعٍ يُبْصَرُ فِيهِ النُّورُ أَوْ يَسْتَنْشِقُ
الهِوَاءَ اللَّذِينَ يَمُنُّ بِهِمَا الخَالِقُ على الأبرارِ
وَالفُجَّارِ مِنْ عِبَادِهِ، قَضَى نَحْبَهُ وَمَا كَانَ
سَجْنُكُمْ لَهُ إِلَّا لِمُخَالَفَتِهِ لَكُمْ فِي أَشْيَاءَ لَا
تَقْتَضِي عَذَابًا وَلَا عِتَابًا...

وَهَبْ أَنْ أَخِي جَادَلْ فِي الدِّينِ، وَنَاطَرَ،
وَقَالَ إِنَّكُمْ عَلَى ضَلَالٍ، فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ
تُمِيتُوهُ بِسَبَبِ هَذَا. وَإِنَّمَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْكُمْ
أَنْ تَنْقُضُوا أَدْلَتَهُ، وَتَدَحِّضُوا حُجَّتَهُ، بِالْكَلامِ
أَوْ الْكِتَابَةِ...

وَلَكِنْ، لَوْ كَانَ لَكُمْ بَصِيرَةٌ وَرُشْدٌ، لَعَلِمْتُمْ
أَنَّ الاضْطِهَادَ، وَالْإِجْبَارَ على شَيْءٍ، لَا يَزِيدُ
المُضْطَهَدَ، وَشَيْعَتَهُ، إِلَّا كَلْفًا بِمَا اضْطُهِدَ
عَلَيْهِ... ||

أحمد فارس الشُّدياق
السَّاقُ على السَّاقِ فِي ما هو الفارياق

صِفْرٌ عَنِ عَمْدٍ

في سنة ١٨٢٩، في دَيْرٍ مِنْ أَدْيَارِ الطَّائِفَةِ المَارُونِيَّةِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ لُبْنَانَ، مَاتَ، بَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنْ «الاحتجاج»، على جَارِي لُغَةِ اليَوْمِ، وَمِنْ «التَّعْذِيبِ»، عَنِ عُمُرٍ لَا يَعْدُو الثَّلَاثِينَ إِلَّا بِقَلِيلٍ، أَسْعَدَ الشُّدْيَاقِ.^(١)

لَمْ يَسْتَحِقَّ الشُّدْيَاقُ، مُدْرَسُ العَرَبِيَّةِ وَالسُّرْيَانِيَّةِ وَاللَّاهُوتِ، هَذَا المَصِيرَ لِمُخَالَفَتِهِ أَيًّا مِنَ الوَصَايَا العَشْرِ، أَوْ لِأَرْكَابِهِ جِنَايَةً أَوْ فَاحِشَةً لَمْ تَتَّسِعْ هَذِهِ الوَصَايَا لِإِخْصَائِهَا، بَلْ لِمَا كَانَ مِنْ خُرُوجِهِ عَلَى الكَنِيسَةِ الَّتِي وُلِدَ فِي حَوْرَتِهَا وَتَرَعَّرَعِ، وَعَلَى تَعَالِيمِهَا، أَوْ قُلْ، عَلَى جَارِي لُغَةِ اليَوْمِ أَيْضًا، لِمَا كَانَ مِنْ انْشِقَاقِهِ عَنِ هَذِهِ الكَنِيسَةِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ جَمِيعًا لِمَا كَانَ مِنْ إِصْرَارِهِ، رَغْمَ كُلِّ مَا أُنْزِلَ بِهِ مِنْ أَدَى وَمِنْ تَنْكِيلِ، عَلَى التَّمَسُّكِ بِمَا اعْتَنَقَهُ مِنْ عَقِيدَةٍ (مَسِيحِيَّةٍ) جَدِيدَةٍ!

بِالطَّبْعِ، لَيْسَ أَسْعَدُ الشُّدْيَاقِ أَوَّلَ «سَجِينِ رَأْيٍ»، قَتِيلِ

^(١) كَانَتْ وِلَادَةُ أَسْعَدِ الشُّدْيَاقِ فِي الحَدَثِ إِلَى الجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ بَيْرُوتَ فِي ٣١ أَيْارَ ١٧٩٨.

مُعْتَقِدٍ، فِي هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ مِنَ الْعَالَمِ^(١)، وَلَا الدَّيْرُ الَّذِي
 اعْتُقِلَ فِيهِ وَعُدِّبَ وَقَضِيَ أَفْطَحَ مُعْتَقِلٍ فِي تَارِيخِهَا،
 وَلَكِنْ، مَتَى مَا نَظَرَ الْوَاحِدُ مِنَّا وَالوَاحِدَةُ، مِنْ نَافِذَةِ
 الْيَوْمِ، إِلَى «مِحْنَةِ أَسْعَدِ الشُّدْيَاقِ»، لَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ مِنَ
 الْعَجَبِ أَنْ يُوَافِقَ انْتِهَاءَ هَذِهِ الْمِحْنَةِ، بِمَوْتِ صَاحِبِهَا،
 عَامًا لِعَامٍ تَقْرِيْبًا، بِدَايَةِ دُخُولِ هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ، مِنْ أَقْصَاهَا
 إِلَى أَقْصَاهَا، عَلَى خَلْفِيَّةٍ مِنْ اسْتِيلَاءِ الْوَهْنِ عَلَى الدَّوَلَةِ
 الْعُثْمَانِيَّةِ، طَوْرًا جَدِيدًا مِنْ أَطْوَارِ سَيْرَتِهَا، وَصَحَ نَاسَهَا
 وَجَمَاعَاتِهَا وَمُجْتَمَعَاتِهَا، وَجَهًا لَوْجِهٍ «الْحَدَاثَةِ» وَقِيَمِهَا
 وَمُفْرَدَاتِهَا، فِي تَنَازُعٍ هَذِهِ الْقِيَمِ وَالْمُفْرَدَاتِ^(٢).

وَحَيْثُ يَسْتَوْقِفُ، أَيَّمَا اسْتِيْقَافٍ، التَّشَابُهَ بَيْنَ السَّاعَةِ
 الشُّدْيَاقِيَّةِ تِلْكَ وَمَا يَسْتَقْبِلُ الْوَاحِدَ مِنَّا وَالوَاحِدَةَ، فِي كُلِّ
 يَوْمٍ، مِنْ أَخْبَارٍ، مَاتَهَا مِنْ هُنَا أَوْ هُنَاكَ، عَنِ اعْتِقَالِ «مُدَوِّنٍ»
 أَوْ «نَاشِطَةٍ سِيَاسِيَّةٍ» أَوْ شَاعِرٍ فَاضَتْ قَرِيحَتُهُ وَقَلَّتْ مِنْهُ

(١) نَقُولُ «الْمِنْطَقَةَ»، عَلَى إِزْسَالِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ وَإِيْهَامَا لِلسَّبَبَيْنِ مُتَدَاوِعَيْنِ
 (ظَاهِرِيًّا): لِأَنَّ هَذِهِ الْمُبَادَرَةَ الْقَيْئَةَ لَا تُحْسِنُ أَنْ تَزْعُمَ بِأَنَّهَا تَسْتَعْرِقُ مِنْطَقَةَ
 «الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ وَشَمَالِ أُفْرِيْقِيَا» كَافَّةً، وَلِأَنَّهَا، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، لَا تَقْتَضِي مِنْ
 أَنْ يَتَوَسَّعَ مَدَارُ اهْتِمَامِهَا، شَيْئًا فَشَيْئًا، فَيُعْطِيَ الشَّرْقَ الْأَوْسَطَ الْكَبِيرَ.

(٢) نَكْتَفِي، هُنَا، بِالتَّذْكِيرِ بِأَتْنَيْنِ: بِأَنَّ فَرَنْسَا احْتَلَّتِ الْجَزَائِرَ سَنَةَ ١٨٣٠، وَبِأَنَّ اِبْرَاهِيمَ
 بَاشَا جَرَّدَ حَمَلَتَهُ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ سَنَةَ ١٨٣١... عَلَى هَذَيْنِ التَّارِيخِيَيْنِ قِسْ/قِيسِي مَا
 انْتَحَتْ عَلَيْهِ الْمِنْطَقَةُ مِنْ مُنَاقَسَاتٍ دَوْلِيَّةٍ حَمَلَتْ فِي رِكَابِهَا «الْحَدَاثَةَ» أَشْكَالَ الْأَوَانِ.

اللِّسَانِ، فَمِنَ الْعَدْلِ أَلَّا يُعْمِنَنَا هَذَا الْمَزِيدُ مِنَ الْأَمْرِ نَفْسِهِ
عَمَّا اسْتَجَدَّ خِلَالَ ذَلِكَ الْقَرْنِ، التَّاسِعَ عَشَرَ، مِنْ تَحْدِيثِ،
فِي رِكَابِ تِلْكَ «الْحَدَاثَةِ»، لِلأُنْظُمَةِ الْعِقَابِيَّةِ، بَوًّا السَّجْنِ،
فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، الْمَحَلَّ الْمَرْكَزِيِّ الَّذِي لَا يَزَالُ مَحَلُّهُ،
وَحَسْبُنَا، مَثَلًا، أَنْ نُطَالِعَ مَا كَتَبَهُ أَحَدُ شُيُوخِ الْمُؤَرِّخِينَ
الْمُعَاصِرِينَ مِنْ أَنَّ «التَّوَسَّلَ بِالسَّجْنِ بَدِيلًا مِنَ الْعُقُوبَاتِ
الْبَدَنِيَّةِ كَانَ التَّطَوُّرَ الْأَبْرَزَ لِلنِّظَامِ الْجِنَائِيِّ الْمِصْرِيِّ فِي الْقَرْنِ
التَّاسِعَ عَشَرَ» - حَسْبُنَا ذَلِكَ لِنَتَحَقَّقَ مِنْ تِلْكَ الْمَرْكَزِيَّةِ...^(٤)

بَعْدَ أَقَلِّ مِنْ قَرْنٍ عَلَى «مِحْنَةِ أَسْعَدِ الشُّدِّيَّاقِ»، غَدَوَاتِ
الْحَرْبِ الْكُوْنِيَّةِ الْأُولَى الَّتِي آذَنْتْ بِدُخُولِ الْعَالَمِ، بِمَا
فِيهِ هَذِهِ الْمِنْطَقَةُ مِنْهُ، عَصْرًا جَدِيدًا مِنْ عَنَاوِينِهِ تَقْوُضُ
إِمْبْرَاطُورِيَّاتٍ، وَإِنْشَاءُ دَوْلٍ وَطَنِيَّةٍ عَلَى أَنْفَاضِهَا، - بَعْدَ
أَقَلِّ مِنْ قَرْنٍ عَلَى ذَلِكَ، أَلْفَى صِحَافِيٍّ سُوْرِيٍّ شَابًّا نَفْسَهُ
وَرَاءَ قُضْبَانِ سِجْنٍ فِي جَزِيرَةِ أَرْوَادٍ بِسَبَبِ مِنْ مُعَارَضَتِهِ
لِلْإِتِّدَابِ الْفَرَنْسِيِّ، فَلَمْ يَجِدْ، فِي وَحْشَتِهِ تِلْكَ، مَا يَدْفَعُ

^(٤) مَاتَى هَذَا الْأَسْتِشْهَادُ مَقَالَةً بِتَوْقِيعِ الْمُؤَرِّخِ الْهَوْلَنْدِيِّ رُودُولْفِ بِيْتْرَزِ مَدَارُهَا عَلَى
نَطَوُّرِ الْأُنْظُمَةِ الْعِقَابِيَّةِ فِي مِصْرٍ خِلَالَ الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ. اِطْلُبْ مُصَدَّرَ الْمَقَالَةِ فِي
الْقِسْمِ الْإِنْكَلِبِيَّ مِنْ هَذِهِ الْمَطْبُوعَةِ.

به «ظلام السَّجْنِ»^(٥) عَنْهُ سِوَى أَنْ يُنَادِيَهُ، بِكُلِّ جَوَارِحِهِ،
 دَاعِيًا إِيَّاهُ إِلَى أَنْ يُخَيِّمَ مَا وَسَعَهُ التَّخَيُّمُ، مُؤَمَّلًا أَنْ يُتَابَعَ
 هَذَا الظَّلَامُ اخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يُحْلِيَ مَحَلَّهُ
 لـ«فَجْرٍ» يَجْتَمِعُ فِيهِ النُّورُ و«المَجْدُ» مَعًا، فَكُتِبَتْ بِقَلَمِ
 ذَلِكَ السَّجِينِ/الشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ لَعَلَّهَا مِنْ أَشْهَرِ صَفَحَاتِ
 الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ السَّجْنِيِّ الْحَدِيثِ - وَلَا سِيَّمَا بِلِحَازِ مَا أُتِيحَ
 لَهَا أَنْ تَسِيرَهُ مُعْنَاةً بَيْنَ النَّاسِ.^(٦)

مَثَلُ الشُّدْيَاقِ، لَيْسَ الرَّيِّسَ أَوْلَ «سَجِينٍ سِيَاسِيٍّ» يَتَنَزَّلُ
 عَلَيْهِ الْوَحْيُ الشُّعْرِيُّ مِنْ ظَلَامِ السَّجْنِ، وَلَكِنْ، هُنَا أَيْضًا،
 مَتَى مَا نَظَرَ الْوَاحِدُ مِنَّا وَالوَاحِدَةُ، مِنْ مَنْظُورِ الْيَوْمِ، إِلَى
 «مِحْنَةٍ نَجِيبِ الرَّيِّسِ» الَّتِي خَلَدَتْهَا هَذِهِ الْقَصِيدَةُ لَنْ
 يَمْلِكَ نَفْسَهُ مِنْ أَنْ يَرَى فِيهَا مَعْلَمًا عَلَى طَرِيقِ مَا نَصْطَلِحُ
 عَلَى وَصْفِهِ بِ«الْمَسْأَلَةِ السَّجْنِيَّةِ».

فَعَلَى إِثْرِ مَا كَانَ إِنْشَاؤُهُ مِنْ «دَوْلٍ وَطَنِيَّةٍ» فِي هَذِهِ
 الْمِنْطَقَةِ، دَخَلَتْ عَلَى ثِقَافَتِهَا السِّيَاسِيَّةِ جُمْلَةٌ مِنَ الْمُفْرَدَاتِ
 الْجَدِيدَةِ وَمِنَ الْأَسْبَابِ الْمَوْجِبَةِ لِأَنْ تَسِيرَ بِالوَاحِدِ مِنْ

^(٥) للتذكير، «ظلام السَّجْنِ» هو، أَيْضًا، عُنْوَانُ مُذَكَّرَاتِ مُحَمَّدِ عَلِي (أَبِي الْحَسَنِ)
 الطَّاهِرِ (١٨٩٦ - ١٩٧٤) الَّتِي كَانَ تُشْرُفُهَا فِي الْفَاهِرَةِ سَنَةَ ١٩٥١.

^(٦) يَا ظَلَامَ السَّجْنِ حَيِّمٌ إِنَّنَا نَهْوَى الظَّلَامَا
 لَيْسَ بَعْدَ اللَّسِيلِ إِلَّا فَجْرٌ مَجْدٍ يَتَسَامَى

النَّاسِ، («المُؤَاطِنُ/المُؤَاطِنَةُ»)، مَوَاقِفُهُ مِنَ الشَّأْنِ العَامِّ،
وَخِيارَتُهُ، إِلى السُّجُن!

في شُباطِ مِنْ سَنَةِ ١٩٥٨، في حَمَاةِ «الثَّوْرَةِ الجَزائِرِيَّةِ»
على الاستِعمارِ الفَرَنسِيِّ، وَقَبْلَ أَشْهُرٍ مِنْ سُقُوطِ الجُمهُورِيَّةِ
الفَرَنسِيَّةِ الرَّابِعَةِ، صَدَرَ في بَارِيسَ كِتابٌ صَغِيرٌ عُنْوانُهُ
الاسْتِجْوابُ يَرُوي فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الفَرَنسِيُّ هِنري آلِليخ، المُؤَيِّدُ
لِلثَّوْرَةِ الجَزائِرِيَّةِ، مِحْنَتُهُ في مُعْتَقَلِ الأَبْيَارِ، (الجَزائرِ
العاصِمَةِ)، على أَيدي جُنُودِ الجَيْشِ الفَرَنسِيِّ، واصِفاً
بِالتَّفْصِيلِ المُملِّ صُنُوفَ التَّعْذِيبِ التي أُنْزِلَتْ بِهِ.
هَزَّ الكِتابُ الصَّغِيرُ ما هَزَّ مِنْ أَرْكانِ الجُمهُورِيَّةِ الكَبِيرَةِ،
وَزَعَزَعَ ما زَعَزَعَ مِنْ ثِقَتِها الأَخْلاقِيَّةِ بِنَفْسِها، على أَنْ مَحَلَّهُ
مِنَ السَّيرَةِ السُّجُنِيَّةِ لِهَذِهِ المِنْطَقَةِ لا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ
انْتِصارِهِ المَعنَوِيِّ لِثَّوْرَةِ الشَّعبِ الجَزائِرِيِّ على الاستِعمارِ
الفَرَنسِيِّ...

فَمَنْ يُطالِعُ هَذَا الكِتابَ على هَدْيٍ مِمَّا نَعْرِفُهُ اليَوْمَ عَمَّا
(كَانَ) يَجْري في سُجونِ دَوْلِ سَبَقَتِ الجَزائرِ إِلى التَّحَرُّرِ
والاسْتِقالِ، وَمَنْ يُطالِعُ هَذَا الكِتابَ على هَدْيٍ مِمَّا
أَصْبَحَتْ سُجونُ الجَزائرِ مَسْرَحًا لَهُ بَعْدَ نَيْلِها الاسْتِقالِ، لا

يَسْعُهُ إِلَّا أَنْ يُنْزِلَهُ مِنْزِلَةَ الشَّاهِدِ عَلَى الْإِخْفَاقِ الْعَظِيمِ
لـ«الاستعمار»، في أن يَفْتَرِحَ أُنْمُودَجًا يُحْتَذَى بِهِ، كما
للمتحررين منه في تَرْجَمَةِ الشُّعَارَاتِ التي اَمْتَطَى
بَعْضُ رُوَادِ «التَّحَرُّرِ» هذا، بِاسْمِهَا، هُنَا وَهُنَا، صَهَوَاتِ
السُّلْطَةِ، - تَرْجَمَةِ تِلْكَ الشُّعَارَاتِ إِلَى مَشَارِيحَ مُجْتَمَعِيَّةٍ
تَحْتَرِمُ الْحَدَّ الْأَدْنَى مِنْ حُقُوقِ النَّاسِ وَكِرَامَاتِهِمْ - فما
بِالْكَ بِمَنْ لَمْ يَحْتَجِ إِلَى اِمْتِطَاءِ هَذِهِ الشُّعَارَاتِ مَطِيَّةً إِلَى
السُّلْطَةِ، وَلَا بِالِى بِهَا أَصْلًا، مُعْتَبِرًا أَنَّ طَاعَتَهُ مَكْتُوبَةٌ فِي
اللُّوْحِ الْمَحْفُوظِ لَا أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ...

نَعَمْ، لَيْسَ عَلَى نَجِيبِ الرَّيِّسِ عَنَبٌ أَنَّهُ أَحْسَنَ الظَّنِّ
بـ«الظلام» وَلَمْ يَخْطُرْ لَهُ بِبَالٍ أَنَّ السُّجُونَ فِي الْبَلَدِ الَّذِي
سُجِنَ فِي سَبِيلِ حُرِّيَّتِهِ، (وَفِي سِوَاهِ)، لَنْ تَلْبَثَ أَنْ تَتَحَوَّلَ
إِلَى مَمَالِكِ لـ«الظلام والجنون» عَلَى مَا كَتَبَ فِي وَصْفِهَا
شَاعِرٌ آخَرٌ، شَرِيكَ لِلرَّيِّسِ فِي الْمُواطِنِيَّةِ، أَمْضَى فِي أَحَدِهَا
سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً، وَلَكِنْ هَذَا مَا كَانَ... هَذَا مَا يَكُونُ...^(٧)

وَدَارَتِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا، وَأَنْتَهَتِ الْحَرْبُ الْبَارِدَةُ بِانْتِصَارِ أَحَدٍ

^(٧) هُوَ الشَّاعِرُ السُّورِيُّ فَرَجُ بَيْرُقْدَارِ.

الْقُطْبَيْنِ عَلَى الْآخَرَ، وَاسْتَعْجَلَ بَعْضُهُمْ فَأَذَنَ فِي النَّاسِ
أَنَّ التَّارِيخَ قَدْ انْتَهَى، وَاسْتَعَلَّتْ شِعَارَاتُ الْقُطْبِ الْمُنتَصِرِ
وَمِنْهَا الدَّفَاعُ عَنِ «حُقُوقِ الْإِنْسَانِ» وَعَنِ «الْحُرِّيَّاتِ الْعَامَّةِ»
عَلَى نَحْوِ بَاتٍ يَتَعَدَّرُ مَعَهُ عَلَى أَوْلِيكَ الْمُنتَصِرِينَ السُّكُوتُ،
بِالْكَامِلِ، عَنِ أَفْعَالِ بَعْضِ مُسْتَبِدِّي هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ، بِصَرْفِ
النَّظَرِ عَمَّا أْبْلَاهُ هَؤُلَاءِ، فِي مُزْدَحَمِ تِلْكَ الْحَرْبِ بَيْنَ الشَّرْقِ
وَالْغَرْبِ، مِنْ إِبْلَاءَاتٍ تُبْرِرُ السُّكُوتَ عَنِ أَفْعَالِهِمْ.

وَهَكَذَا، مَثَلًا، وَجَدَ «أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ»، مَلِكُ الْمَمْلَكَةِ
الْمَغْرِبِيَّةِ، الْحَسَنُ الثَّانِي، نَفْسَهُ، مُلْجَأً، عَلَى مَطْلَعِ
التَّسْعِينِيَّاتِ، إِلَى فَكِّ بَعْضِ مِنَ الْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ تُقَيِّدُ
الْحَيَاةَ السِّيَاسِيَّةَ فِي بِلَادِهِ بِاقْتِرَاحِ جُمْلَةٍ مِنَ الْإِصْلَاحَاتِ
الدُّسْتُورِيَّةِ. وَلَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الصُّدْفَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَنْ سَبَقَ
اقْتِرَاحَ هَذِهِ الْإِصْلَاحَاتِ (١٩٩٢)، وَالْمُبَاشَرَةَ بِالْعَمَلِ بِهَا،
إِغْلَاقُ سَجْنِ تَازَمَامَرْتِ (١٩٩١)، بَعْدَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ مِنَ
الْإِنْكَارِ الدَّوُوبِ، عَلَى لِسَانِ الْمَلِكِ نَفْسِهِ وَالسَّنَةِ حَاشِيَتِهِ،
أَنَّ هَذَا السَّجْنَ يُوجَدُ...

وَإِذْ تَبَقِيَ الْمَمْلَكَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ حَالَةً عَلَى حِدَةٍ مِنْ سِوَاهَا مِنْ
بُؤْدَانِ الْمِنْطَقَةِ مِنْ حَيْثُ الْمَسْئَلُ الَّذِي سَلَكَ فِيهَا مَسَارُ
«الْبَّرْبَلَةِ السِّيَاسِيَّةِ»، وَإِذْ لَمْ تُؤَدِّ «قِلَّةُ السُّكُوتِ» بِأَمْرَاءِ
مُؤْمِنِينَ آخَرِينَ إِلَى إِغْلَاقِ سُجُونِهِمِ السَّرِيَّةِ، إِغْلَاقًا عَلَنِيًّا،

شأن تازمامرت، كفاتحة لإرخاء قبضاتهم عن تلايب الحياة السياسية والاجتماعية في بلادهم، فلقد لجت الدعوة عليهم بضرورة السير على طريق الإصلاح، وانتفت عن انتقادهم صفة الترويح لأعداء «العالم الحر»، بل اتخذت صفة النصيحة والموعظة الحسنة.

وإذ اقتضى المملكة المغربية أن يرحل الحسن الثاني، (تموز ١٩٩٩)، وأن يخلفه على العرش ابنه محمد السادس ليأخذ الإصلاح مداه، ويقرر هذا الأخير، استطراداً على ما كان والده قد باشر فيه، «[إحداث] هيئة تحكيم مستقلة [...] بهدف تحديد تعويض ضحايا وأصحاب الحقوق ممن تعرضوا للاختفاء والاعتقال التعسفي»^(٨)، فلقد اقتضى سوريا، كذلك الأمر، أن يخلف الأب وعده لحافظ الأسد^(٩)، وأن يجري عليه الموت كما يجري على عامة البشر، وأن يرحل، (حزيران ٢٠٠٠)، وأن يخلفه على كرسي الرئاسة ابنه بشار - اقتضى سوريا ذلك ليوعد السوريين بشيء من الإصلاح ومن إرخاء قبضة «الأمن» على «السياسة»...

^(٨) جاء هذا القرار على لسان الملك محمد السادس في الخطاب الذي ألقاه في ٢٠ آب ١٩٩٩ «بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب»، ومما يُذكر أن هذا الخطاب هو الثاني الذي وجهه محمد السادس إلى الشعب المغربي بعد وفاة والده.

٩ من أشهر شعارات جبهة الأسد الأب: «فائدنا إلى الأب، الأمين حافظ الأسد»...

وَكَمَا بِالصُّدْفَةِ أَيْضًا، لَمْ يَمُضِ عَلَى بَشَارِ فِي رِئَاسَةِ
الْجُمْهُورِيَّةِ سِوَى أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ حَتَّى اسْتَشْعَرَ بِالْحَاجَةِ إِلَى
أَنْ يَأْتِيَ بِالدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَوْتَ أَبِيهِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ «تَدَاوُلِ
السُّلْطَةِ» بِالْمَعْنَى الرَّفِيعِ لِلْكَلِمَةِ، وَأَنْ يَأْتِيَ بِالدَّلِيلِ عَلَى
صِدْقِ النَّبِيِّ مِنْهُ فِي أَنْ يَنْهَجَ نَهْجًا جَدِيدًا، فَأُصْدَرَ عَفْوًا
رِئَاسِيًّا عَنْ مِائَاتٍ مِنَ السُّجَنَاءِ السِّيَاسِيِّينَ، رَافَقَهُ الْإِعْلَانُ،
تَسْرِيًّا، عَلَى لِسَانِ «مَصَادِرٍ»، عَنِ الْعَزْمِ عَلَى إِغْلَاقِ سَجْنِ
الْمَرْةِ، الْعَرِيقِ بَيْنَ سُجُونِ سُورِيَا وَبَيْنَ سُجُونِ الْمِنْطَقَةِ،
وَتَحْوِيلِهِ إِلَى «مَعْهَدٍ لِلْعُلُومِ التَّارِيخِيَّةِ وَالآثَارِ»...^(١٠)

لَا تَتِمُّ الْقِصَّةُ السُّورِيَّةُ تَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَرْوِيهَا، وَلَا تَتِمُّ

^(١٠) شَمَلَ الْعَفْوُ الْمَذْكُورُ نَحْوَ ٦٠٠ سَجِينٍ سِيَاسِيٍّ، (الشَّرْقُ الْأَوْسَطُ، ١٦
تشرين الثاني ٢٠٠٠). يُذَكَّرُ أَنَّ الصَّحِيفَةَ نَفَسَهَا كَانَتْ قَدْ أَشَارَتْ فِي أَحَدِ
أَعْدَادِهَا السَّابِقَةِ، (٢٧ تَمُوز ٢٠٠٠)، إِلَى الْإِفْرَاجِ عَنْ «عَشْرَاتٍ مِنَ السُّجَنَاءِ».
لِلْأَمَانَةِ، تَخْتَلِفُ «التُّسْرِيَّاتُ» فِي مَا قُدِّرَ لِسَجْنِ الْمَرْةِ مِنْ مَصِيرٍ، فِي حِينِ قَالِ
بَعْضُهُمْ إِنَّ النَّبِيَّةَ مَعْقُودَةٌ عَلَى تَحْوِيلِهِ إِلَى «مَعْهَدٍ لِلْعُلُومِ التَّارِيخِيَّةِ وَالآثَارِ» عَلَى
مَا هُوَ مَذْكُورٌ أَعْلَاهُ (مَوْضِعُ الْبَوَابَةِ، ٢٠ تشرين الثاني ٢٠٠٠)، ذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى
أَنَّ النَّبِيَّةَ مَعْقُودَةٌ عَلَى تَحْوِيلِهِ إِلَى مُسْتَشْفَى (الْحَيَاةِ، ٢١ تشرين الثاني ٢٠٠٠).
وَلِأَنَّ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ يُذَكَّرُ، مِنَ الْمُفِيدِ الْإِشَارَةُ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَى مَا نَقَلْتُهُ
صَحِيفَةُ الْحَيَاةِ فِي عَدِيدِهَا الصَّادِرِ فِي ٣١ آبَ ٢٠٠١ مِنْ أَنَّ السُّلْطَاتِ السُّورِيَّةَ
قَامَتْ بِنَقْلِ مِائَاتٍ مِنْ نَزَلَاءِ سَجْنِ تَدْمُرَ إِلَى سُجُونِ أُخْرَى «تَمْهِيدًا لِإِغْلَاقِهِ».
وَمِنْ أَفْكَهِ مَا يَرِدُ فِي الْمَقَالِ الْمَذْكُورِ: «وَيَعْتَقِدُ مُرَاقِبُونَ أَنَّ إِغْلَاقَ سَجْنِ
تَدْمُرَ "يُسَاهِمُ فِي شَكْلِ كَبِيرٍ فِي تَحْسِينِ صُورَةِ سُورِيَةِ الْخَارِجِيَّةِ" وَأَنَّ ذَلِكَ
يَأْتِي فِي إِطَارِ "الصُّورَةِ الْجَدِيدَةِ" الَّتِي يَسْعَى الرَّئِيسُ الْأَسَدُ إِلَى تَقْدِيمِهَا...».

القِصَّةِ عُمومًا، مُرورًا بِهَجَمَاتِ ١١ أيلول وما دَشَنَّتُهُ مِنْ «حَرْبٍ عَلَى الإِرْهَابِ» لَا مَا يُنْبِي بِأَنَّهَا مُوشِكَةٌ أَنْ تَضَعَ أَوْزَارَهَا عَمَّا قَرِيبَ، أَوْ أَنْ يُكْفَّ عَنِ التَّوَسُّلِ بَعَاوِينَهَا لِتَبْرِيرِ مَا يَخْطُرُ عَلَى بَالٍ مِنْ ارْتِكَابَاتِ سَجْنِيَّةٍ وَعَيْرِ سَجْنِيَّةٍ، وَمَا لَا يَخْطُرُ، وَمُرورًا بِالزَّلَازِلِ الَّتِي تَوَالَتْ، سَطْحِيَّةً أَوْ جَوْفِيَّةً، عَلَى هَذِهِ المِنطَقَةِ مُنذُ ذَلِكَ الحِينِ، وَالَّتِي يَبْدُو أَنَّهَا مَاضِيَةٌ، حَتَّى إِشْعَارِ آخَرَ، قُدَمًا.

لَا مَحَلَّ، هُنَا، لِإِحْصَاءِ كُلِّ المَلَامِحِ السَّجْنِيَّةِ الآخِذَةِ مِنْ هَذِهِ الزَّلَازِلِ بِطَرْفٍ أَوْ آخَرَ، عَلَى أَنَّهُ لَا مَعْدَى عَنِ التَّوَقُّفِ عِنْدَ ثَلَاثَةِ مِنْهَا عَلَى الأَقْلِ:

- أَوَّلًا، عِنْدَ مَا تَنَاسَلَتْهُ السُّجُونُ الخَاصَّةُ، أَوْ عَيْرُ الحُكُومِيَّةِ، عِلَاوَةً عَلَى السُّجُونِ وَالمُعْتَقَلَاتِ الحُكُومِيَّةِ، فِي البُلْدَانِ الَّتِي فَرَطَتْ الزَّلَازِلُ عَقْدَهَا السُّلْطَانِيَّ وَالجُغْرَافِيَّ، (سُورِيَا، لِيبيَا)؛

- وَثَانِيًا، عِنْدَ مَا تَضَاعَفَتْهُ أَعْدَادُ السُّجْنَاءِ وَالمُعْتَقَلِينَ، أَوْ مَنْ هُمْ فِي حُكْمِهِمْ، سِوَاءَ فِي البُلْدَانِ الَّتِي حَاقَظَ فِيهَا سُلْطَانُ الدَّوْلَةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ (مِصْرَ)، أَوْ الَّتِي يَتَنَارَعُ فِيهَا المُتَنَازِعُونَ عَلَى شَرْعِيَّةِ الدَّوْلَةِ وَسُلْطَانِهَا (الْيَمَنَ)؛

- وَثَالِثًا، وَلَيْسَ الأَقْلُ شَأْنًا عَلَى الإِطْلَاقِ، عِنْدَ مَا أُثْبِتَتْ السُّجُونُ مِنْ مَرَكزِيَّةٍ لَيْسَ فِي حَيَاةِ هَذَا المُجْتَمَعِ أَوْ ذَاكَ فَحَسْبُ،

وإنما على حياة المنطقه أجمع... فلنتذكر، ولندكر بعضنا بعضاً، بأن رحماً من الأرحام التي تكوّنت فيها «داعش» كانت معتقلاً عراقياً، وبأنّ السجون، اليوم، في المشرق والمغرب وفي أماكن أخرى من العالم، هي من المخافات التي يخشى أن تنبت فيها أزهار شرّ «التطرف»!^(١١)

■

توافق هذه السنه، ٢٠١٩، الذكرى المئته والتسعين، بالتمام والكمال، على موت «السجين» أسعد الشدياق بسبب من «سوء المعامله» ومن «التعذيب»؛ وفي ما تكتب هذه الكلمات، وفي ما تقرأ، يسعنا التأكيد أن أحداً ما، والأرجح أكثر من واحدٍ أحدٍ، في سجنٍ ما، علني أو سري، تحت وصاية سلطة حكوميه أو غير حكوميه، من سجون هذه المنطقه، تساءً معاملته ويعذب ويموت أو يوشك أن يموت! أو يتمنى الموت منجاةً من التعذيب!

لم يكن في زمن أسعد الشدياق «حقوق إنسان» ولا منظمات محليه أو دوليه تُعنى بالدفاع عن هذه الحقوق

^(١١) مارتن تشولوف، «قصة «داعش»... من التخطيط في سجن بوكا تحت نظر الأميركيين... إلى جذب البعثيين»، الشرق الأوسط، ١٣ كانون الأول ٢٠١٤.

فَتَرَضُ وَتُوْتِقُ وَتَعْدُ التَّقَارِيرَ وَتُصَدِرُ الْبَيَانَاتِ وَتَسْتَنْجِدُ
 بِالْإِعْلَامِ لِمُسَاءَلَةِ السَّاكِتِينَ عَن هَذِهِ «الانْتِهَاكَاتِ»، وَتَحْمِلُ
 الْحَمَلَاتِ مُتَوَسِّلَةً بِوَسَائِلِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتُنظِّمُ
 الْاِحْتِجَاجَاتِ... إِلَى آخِرِهِ، فَمَضَتْ عُقُودٌ عَلَى مَوْتِهِ قَبْلَ أَنْ
 تَتَحَوَّلَ قِصَّتُهُ إِلَى «قِضِيَّةِ رَأْيِ عَامٍّ» وَإِلَى «سَابِقَةِ» يُورَخُ
 بِهَا. (١٢)

لَا غَرَوْ، إِذًا، أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ كَذَلِكَ. أَمَّا أَنْ يُسَجَّلَ كُلُّ يَوْمٍ
 مِنْ أَيَّامِنَا، فِي هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ مِنَ الْعَالَمِ، اِعْتِقَالُ أَسْعَدِ
 شَدِياقِ، وَسَجْنُهُ، وَتَعْذِيبُهُ حَتَّى الْمَوْتِ، أَوْ شَرُّ مِنْهُ حَدٌّ أَنْ
 يَتَمَمَّى الْمَوْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ «الآلِيَّاتِ»
 الْحُقُوقِيَّةِ وَالْقَانُونِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الَّتِي يُفْتَرَضُ بِهَا أَنْ تَكْبَحَ
 هَذَا الْقَبِيلَ مِنَ الْاِرْتِكَابَاتِ، فَأَمْرٌ، بِبَسَاطَةٍ، لَا يَكَادُ أَنْ
 يُصَدَّقَ، بَلْ يَنْبَغِي أَلَّا يُصَدَّقَ!

وَعَلَى فَطَاعَةِ أَيِّ ارْتِكَابٍ بِحَقِّ أَيِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، فَأَقْلُ
 مَا يُقَالُ عِنْدَ التَّأْمُلِ فِي سِيرَةِ الْمُمَارَسَاتِ السَّجْنِيَّةِ فِي
 هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ مِنَ الْعَالَمِ: يَا حَبَّذَا، لَوْ أَنَّ ضَحَايَا هَذِهِ
 الْمُمَارَسَاتِ افْتَصَرُوا، وَيَقْتَصِرُونَ، عَلَى أَفْرَادٍ خَرَجُوا عَلَى
 «السُّلْطَانِ» - سَوَاءٌ أَكَانَ هَذَا السُّلْطَانُ دِينًا أَمْ مُعْتَقَدًا

(١٢) وكما هو معروف فإنَّ الفُضْلَ فِي تَحْوِيلِهَا إِلَى «قِضِيَّةِ رَأْيِ عَامٍّ» يَعُودُ لِلْمُعَلِّمِ
 بَطْرَسِ الْبِسْتَانِيِّ الَّذِي نَشَرَ سَنَةَ ١٨٦٠ قِصَّةَ أَسْعَدِ الشَّدِياقِ - بَاكُوزَةَ سُورِيَا.

أَمْ حُكُومَةً أَمْ حَاكِمًا - عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ مُتَرَتِّبَاتِ خُرُوجِهِمْ!
نَقُولُ: يَا حَبْدَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ... فَالْفِظَاعَةُ اللَّاحِقَةُ بِفَرْدٍ
تَحْتَمِلُ أَنْ تُتَرْجَمَ عَنْهَا «النَّفْتَةُ» يَنْفُثُهَا السَّجِينُ الْمُعَذَّبُ
نَفْسَهُ، أَوْ أَنْ تُحْصِيَهَا «الرَّوَايَةُ» يَرُويهَا شَاهِدٌ ثَقَّةٌ أَوْ بَاحِثٌ
مُدَقِّقٌ. أَمَّا الْفِظَاعَةُ الْجَمَاعِيَّةُ الْمُعَمَّمَةُ وَالْمُتَمَادِيَّةُ، فَلَا
نَفْتَةَ تُتَرْجَمُ عَنْهَا وَلَا رِوَايَةَ تُحْصِيهَا...

■

هَذِهِ، عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ، بَعْضُ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ وَمِنَ
الهُوَاجِسِ الَّتِي حَدَّتْ بِأَمِّمٍ لِلتَّوْثِيقِ وَالْأَبْحَاطِ إِلَى الْفَحْصِ عَن
وَجَاهَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى إِطْلَاقِ مُنْتَدَى يُعْنَى بِالشُّوْنِ السَّجِنِيَّةِ،
وَلَا نُحَدِّدُ فَنَقُولُ، مَثَلًا، بـ«شؤون السجين السياسي» لِسَبَبِ
بَسِيطِ لِلْغَايَةِ هُوَ التَّدَاخُلُ، الْمُتَعَمَّدُ، فِي حَالَاتٍ كَثِيرَةٍ،
بَيْنَ «التُّهْمِ الْجِنَائِيَّةِ» وَ«التُّهْمِ السِّيَاسِيَّةِ»، وَاسْتِطْرَادًا بَيْنَ
«السَّجْنِ الْجِنَائِيِّ» وَ«السَّجْنِ السِّيَاسِيِّ». وَأَضْفُ إِلَى هَذِهِ
الْمُقَدِّمَاتِ وَالهُوَاجِسِ الْمُقِيمَةَ مَا سَبَقَ لِأَمِّمٍ أَنْ وَجَّهَتْهُ مِنْ
اهْتِمَامٍ إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَلَا سِيَّمَا فِي وَجْهَيْهَا اللَّبْنَانِيِّ
وَالسُّورِيِّ وَاللُّبْنَانِيِّ/السُّورِيِّ، وَمَا يَسْتَجِدُّ، يَوْمِيًّا، مِنْ جَدِيدٍ
سَجْنِيٍّ، يُغْرِي، إِنْ جَازَتْ الْعِبَارَةُ، بِمَزِيدٍ مِنَ التَّعَمُّقِ فِيهَا.

ولأنّ الأفكار، كما يقولُ ذاك، «مُلقاةٌ على قارعةِ الطَّريقِ»،
فَلَقَدْ وَجَبَ عَلَيْنَا أَوَّلَ مَا وَجَبَ، أَنْ نَتَحَقَّقَ بِأَنَّ فِكْرَةَ
مُنْتَدَى يُعْنَى بِالشُّؤُونِ السُّجْنِيَّةِ، فِي المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ،
لَيْسَتْ مِمَّا سُبِقْنَا إِلَيْهِ، وبِأَنَّ مَا نُحَاوِلُهُ لَيْسَ، اسْتِطْرَادًا،
مَضِيعَةً لِلجُهْدِ وَالوَقْتِ وَغَيْرِهِمَا.

كذلك، لَمْ نَكْتَفِ بِمَا كُنَّا عَلَى عِلْمٍ بِوُجُودِهِ مِنْ مُبَادِرَاتٍ
وَمِنْ مَشَارِيحِ ذَاتِ صِلَةٍ بِالشُّؤُونِ السُّجْنِيَّةِ، فَوَسَّعْنَا دَائِرَةَ
التَّحَرِّيِّ وَالاسْتِقْصَاءِ، وَأَشْرَكْنَا عَدَدًا مِنَ الصَّدِيقَاتِ وَالأَصْدِقَاءِ
بِمَا يَخْطُرُ لَنَا مِنْ فِكْرَةٍ، وَاسْتَعْلَمْنَا مِنْهُمْ عَمَّا قَدْ يَكُونُ فَاتِنًا
الْوُقُوفُ عَلَيْهِ، وَاسْتَفْتَيْنَاهُمْ الرَّأْيَ فِي وَجَاهَةِ المَسْعَى، وَإِذْ
تَحَصَّلَ لَأَمَمِ القَدْرِ الوَافِي مِنَ الأَطْمِئْنَانِ بِأَنَّهَا لَا تَخْبُطُ فِي
مَا تُقَدِّمُ عَلَيْهِ خَبْطَ عَشْوَاءِ، بَادَرْتُ، بِرِوِيَّةٍ وَاتِّئَادٍ مَقْصُودَيْنِ،
إِلَى الإِعْلَانِ، بِخَفَرٍ، عَن إِطْلَاقِ «مُنْتَدَى المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
لِلشُّؤُونِ السُّجْنِيَّةِ»، قَارِنَةً هَذَا الإِعْلَانَ بِسَعْيِ حَثِيثٍ إِلَى
وَصُلِّ الصَّلَاتِ بِأَوْسَعِ عَدَدٍ مِنَ المَعْنِيِّينَ، أَفْرَادًا وَهَيْئَاتٍ،
بِالمَسْأَلَةِ السُّجْنِيَّةِ فِي شَتَّى شَوَاهِدِهَا وَتَعْبِيرَاتِهَا.

فَمِنْ أَيِّ الطَّرِيقِ قَصَدَ ذُو الفُضُولِ، أَوْ ذُو الإِهْتِمَامِ، إِلَى الدُّنُوِّ
مِنَ المَسْأَلَةِ السُّجْنِيَّةِ، فِي المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَلَسَوْفَ يَجِدُ
الطَّرِيقَ مُزْدَحِمًا بِهَذِهِ الشَّوَاهِدِ وَالتَّعْبِيرَاتِ. فَإِنْ أَخَذَ طَرِيقَ
«حُقوقِ الإنسانِ» ضَاعَ فِي زِحَامِ «الانتهاكاتِ»، وَإِنْ أَخَذَ

طَرِيقَ الْإِنْتاجِ الْأَدَبِيِّ وَالْفَنِّيِّ لَمْ يَكَدْ يُصَدِّقُ أَنَّ الْمَكْتَبَةَ
السَّجْنِيَّةَ، فِي هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ، عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الثَّرَاءِ،
وإنْ أَخَذَ طَرِيقَ «العُنْفِ» و«التَّطْرُفِ» مُتَابِعًا نَسَبَهُمَا،
أَلْفَى أَنَّ وِراءَ الْقُضبانِ، هُنَا وَهُنَا، مَعاقِدَ لِهَذَا النَّسَبِ،
وإنْ أَخَذَ طَرِيقَ «السِّيَاسَةِ» لَمْ يَحْتَجْ إِلَى كَثِيرٍ إِمعانٍ لِيَرَى
رَأْيَ الْعَيْنِ كَيْفَ يَتَوَسَّلُ الْقابِضُونَ عَلَى السُّلْطَةِ بِالسَّجْنِ
وَسَيْلَةَ أَثِيرَةٍ لِإِفحامِ الْخُصومِ، وِإنْ تَفَقَّدَ الْعَلاقاتِ الْمُتَوَتَّرَةَ
بَيْنَ عَدَدٍ مِنْ دُولِ الْمِنْطَقَةِ عَجَبَ كَيْفَ أَنَّ أَنْظَمَةَ يَجْمَعُ
بَيْنَها تَحْقيرُها الْإِنسانَ، وَضَرْبُها عُرْضَ الْحائِطِ بِحُقوقِهِ
تَتَنابُدُ بِما يَعْمرُ بِهِ سِجْلُ كُلِّ واحِدٍ مِنْها مِنْ انْتِهاكاتِ لِتِلْكَ
الْحُقوقِ، (ولا سِيَّما مِنْ انْتِهاكاتِ سِجْنِيَّةِ)، وِإنْ أَخَذَ طَرِيقَ
التَّفاؤْلِ بِالْمُسْتَقْبَلِ وَنَظَرَ فِي تِجارِ بِالدُّوْلِ القَلِيلَةِ الِتي
تُحاوِلُ أَنْ تَضَعُ ماضِياها عَلَى الْمُشْرِحِ، (تونِسِ وَالْمَمْلَكَةِ
المَغْرِبِيَّةِ)، هالَهُ ما يَزِينُهُ «الماضي» فِي المِيزانِ وما يَلزِمُ
مِنْ جَهِدٍ لِلتَّخْفِيفِ مِنْ وَطْأَتِهِ – ولا نَقولُ لِلتَّخْفِيفِ مِنْهُ...
وَحدَّثْ ولا حَرَجَ عَن كُلِّ الطُّرُقِ الأُخْرى الْمُفْضِيَّةِ، تَوًّا أوْ
بِالِواسِطَةِ، إِلى الْمَسْأَلَةِ السَّجْنِيَّةِ، وَحدَّثْ ولا حَرَجَ عَمَّا قَدْ
يُصادِفُهُ السَّالِكُ فِي كُلِّ واحِدٍ مِنْها.

مُنْتَهى ما افْتَرَضْتُهُ أُمَّمٌ، إِذاً، هُوَ أَنَّ «الْمَسْأَلَةَ السَّجْنِيَّةَ» فِي
المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَفِي كُلِّ بَلَدٍ مِنْ بُلدانِهِما، جَدِيرَةٌ بِأَنَّ

تُحْمَلَ عَلَى أَنَّهَا مَسْأَلَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا لَا تُخْتَزَلُ إِلَى أَيِّ مِنْ تَعْبِيرَاتِهَا (الْحَقُوقِيَّةِ أَوْ السِّيَاسِيَّةِ أَوْ الْفَنِّيَّةِ أَوْ التَّارِيخِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا)، وَلَوْ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى الْإِحَاطَةِ بِهَا، أَوْ إِلَى السَّعْيِ إِلَى الْإِحَاطَةِ بِهَا، فِي مَعْرِزٍ مِنْ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ. مِنْ هُنَا، كَانَتْ الْمُبَادَرَةُ إِلَى إِطْلَاقِ هَذَا الْمُنتَدَى، «مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِلشُّؤُونِ السُّجْنِيَّةِ»، وَدَعْوَةُ كُلِّ مَنْ يَعْنِيهِمُ الْأَمْرُ، كُلُّ وَفَّقَ اهْتِمَامَاتِهِ وَتَبَعًا لَهَا، إِلَى الْمُشَارَكَةِ فِي بُلُورَةِ جَدُولِ أَعْمَالِهِ وَمَشَارِعِهِ وَنَشَاطَاتِهِ.

وَسَيْرًا عَلَى خُطَّةٍ لَمْ تَفْتَأْ أُمَّمٌ تَمْضِي عَلَيْهَا مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهَا، إِنَّمَا تَفْتَرِحُ أَنْ تَكُونَ بَاكُورُهُ مَا يُطَلُّ الْمُنتَدَى مِنْ خِلَالِهِ مَنَصَّةً إلكترونيَّةً عِمَادُهَا خِزَانَةٌ تَجْمَعُ مَا يَتَيَسَّرُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ وَمُسْتَمْسَكَاتٍ وَوُثَائِقٍ تُعْنَى بِالمَسْأَلَةِ السُّجْنِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَيُتَابَعُ تَرْتِيبُهَا وَجُهَاتٍ ثَلَاثًا: وَجْهَةٌ تَرَى إِلَى كُلِّ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمِنْطَقَةِ بِوَصْفِهِ مَوْضُوعَ تَوْثِيقِ بِدَاتِهِ، وَأُخْرَى تَرَى إِلَى تَوَالِي تَعْبِيرَاتِ الْمَسْأَلَةِ السُّجْنِيَّةِ وَفَقَّ تَسْلُسُلِهَا الزَّمْنِي، وَثَالِثَةٌ تُنْزِلُ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ تَحْتَ عَنَاوِينَ وَأَبْوَابٍ عَابِرَةٍ لِلْبُلْدَانِ، (أَوْ لِمَا تَقَوَّضَتْهُ بَعْضُ هَذِهِ الْبُلْدَانِ إِلَى مَنَاطِقٍ نُفُودٍ)، مِنْ قَبِيلِ «السُّجْنِ السِّيَاسِيِّ»، «التَّعْذِيبِ»، «السُّجُونِ السَّرِّيَّةِ»، «النِّسَاءِ وَرَاءَ الْقُضْبَانِ»؛ فَهَمَّا أَعَدْنَا الْقَوْلَ

وَكِرْزَانَهُ، لَنْ يَسْتَغْرِقَ قَوْلُنَا مَا نَعْتَقِدُ بِهِ أُمَّم، مِنْ أَهْمِيَّةِ
التَّوْثِيقِ الْمَفْتُوحِ، وَنَعْنِي بِذَلِكَ السَّعْيِ إِلَى جَمْعِ أَكْبَرِ
قَدْرِ مُمَكِّنٍ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ وَالْمُسْتَمْسَكَاتِ وَالْوَتَائِقِ
ذَاتِ الصَّلَةِ بِالمَسْأَلَةِ مَوْضُوعِ البَحْثِ، وَتَرْتِيبِهَا وَإِتَاحَتِهَا
لِلْفُضُولِ الْعَامِّ بِلَا قَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ.

بِطَبِيعَةِ الْحَالِ، لَنْ تَكْتَفِي هَذِهِ الْمِنَصَّةُ الْإِلِكْتَرُونِيَّةُ بِأَنْ
تَكُونَ مَنْزِلًا لِهَذِهِ الْخِزَانَةِ، بَلْ سَتَسْعَى جَهْدَهَا لِأَنْ تَكُونَ
أَيْضًا أَشْبَهَ بـ«بِالمَوْزَعِ الْهَاتِفِيِّ» الَّذِي يُتِيحُ التَّوَاصَلَ بَيْنَ
رُؤَادِ الْمِنَصَّةِ، وَبِطَاقَةِ تَعْرِيفِ الْمُنْتَدَى تَوْسِعُ دَائِرَةَ
أَصْدِقَائِهِ وَالْمُشَارِكِينَ فِي نَشَاطَاتِهِ.

وَرَعْمَ تَعْوِيلِنَا الْكَبِيرِ عَلَى هَذِهِ الْمِنَصَّةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ
الْأَوَّلِ مِنْ عَمْرِ الْمُنْتَدَى، فَمَا لَهَا، فِي الْحَقِيقَةِ، أَنْ تَتَحَوَّلَ
إِلَى مُكُونٍ مِنْ مُكُونَاتِهِ وَأَدَاةٍ مِنْ أَدَوَاتِهِ. فَمِمَّا نَبْنِي عَلَيْهِ،
وَكَانَ الْإِلْمَاحُ إِلَيْهِ أَنْفًا، أَنْ أَيًّا مِنْ «المُقَارَبَاتِ الْقِطَاعِيَّةِ»
لِلْمَسْأَلَةِ السُّجْنِيَّةِ، فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، (المُقَارَبَةِ
الْحَقُوقِيَّةِ، الْمُقَارَبَةِ الْأَدَبِيَّةِ/الْفَنِّيَّةِ، الْمُقَارَبَةِ الْجَنْدَرِيَّةِ
وَهَلْمَجْرًا)، لَا تَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ حَقَّهَا؛ بَلْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ:
تَبْنِي هَذِهِ الْمُبَادَرَةَ عَلَى أَنَّ الْجُهُودَ الْقِطَاعِيَّةَ نَفْسَهَا لَا
تُوفِّي حَقَّهَا مِنَ الشَّانِ، وَمِنَ الْعِرْفَانِ بِمَكَاتِبِهَا، إِلَّا بِأَنْ
تَتَرَاءَى فِي مَرَاتِي بَعْضُهَا بَعْضًا، وَأَنْ تَتَخَاطَبَ وَتَتَحَاوَرَ،

وهذا ما حاولته أمم، في نسخة تجريبية، بمناسبة لقاء دعت إليه في تشرين الثاني ٢٠١٨، في العاصمة الألمانية برلين، وشارك فيه عدد من المعنيين بالمسألة السجنية، (سجناء سابقين وناشطين حقوقيين وفنانين وأكاديميين من ذوي الاهتمام بتاريخ المنطقة وأحوالها)، من المشرق والمغرب، وكان مناسبة لاستكشاف ما يمكن أن يتمخض عنه حوار عابر للتخصصات والبلدان والأولويات.

إلى التوثيق والتواصل بالواسطة من خلال المنصة الإلكترونية، وإلى التواصل الإنساني المباشر من خلال الندوات والمؤتمرات، ترسم أمم لـ«منتدى المشرق والمغرب للشؤون السجنية» أن يكون حاضنة لأعمال بحثية أو فنية تضع الثقافة والممارسات السجنية تحت المجهر. وإذ قد يبدو هذا الطموح بعيداً، فسوف تبذل أمم، بمساعدة أصدقائها، ما بالوسع فلا يبقى طموحاً وذلك لما تراه من حاجة ملحة إلى الاجتهاد في الدعوة إلى تغيير محل «السجن» من الجملة التي تصف أحوال هذه المنطقة، وإلى رفع مرتبته في قائمة الطواغيت التي تفتك بها، وذلك على معنى أن السجن ليس قطعة من مشهد مدلهم فحسب، بل عنوان رئيس من عناوين هذا المشهد، وعلى معنى أنه ليس بلاءً عابراً يمكن إصلاحه بإقرار قوانين هنا، (تبقى في معظم الأحيان حبراً على

وَرَقِ)، أَوْ بِتَنْقِيفِ مُرَبِّي السُّجُونِ عَلَى «حُقُوقِ الْإِنْسَانِ»
هُنَاكَ، وَإِنَّمَا هُوَ، بِشَهَادَةِ أَهْلِ الْأَسْتِبْدَادِ أَنْفُسِهِمْ، عَمُودٌ
مِنَ الْأَعْمِدَةِ الَّتِي حَمَلَتْ عُرُوشَ الْبَعْضِ مِنْهُمْ وَلَا تَزَالُ
تَحْمِلُ عُرُوشَ آخَرِينَ! – (وَإِلَّا كَيْفَ نُفَسِّرُ إِغْلَاقَ تَازَمَاتِهَا،
وَالْتَّامِيلَ بِإِغْلَاقِ الْمَرَّةِ؟).

اسْمٌ، الْمُتَنَدِي – «مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِلشُّوُونَ
السُّجُونِيَّةِ» – عَلَى مُسَمًى: لَا حِزْبٌ هُوَ، وَلَا طَرِيقَةٌ، وَلَا
فِرْقَةٌ نَاجِيَةٌ... مُنْتَدَى مُدَيَّلٌ، حَتَّى إِشْعَارِ آخَرَ، بِتَوْقِيعِ أُمَّمٍ
لِلتَّوَثُّيقِ وَالْأَبْحَاطِ، وَإِنْ كَانَتْ الرَّغْبَةُ الصَّادِقَةُ مِنْ أُمَّمٍ أَنْ
تَتَحَوَّلَ هَذِهِ الْمُبَادَرَةُ يَوْمًا إِلَى كِيَانٍ ذِي قِوَامٍ مُسْتَقِلٍّ
بِنَفْسِهِ تُذَكِّرُ أُمَّمٍ، إِنْ ذُكِرَتْ، فِي عِدَادِ مَنْ سَاهَمُوا فِي
تَأْسِيسِهِ وَإِرْسَاءِ أَرْكَانِهِ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ.

إِلَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ، لَا يَسَعُنَا أَنْ نَخْتِمَ هَذِهِ الْعُجَالَةَ دُونَ
الْعِرْفَانِ بِجَمِيلِ كُلِّ الذِّينِ وَاللَّوَاتِي تَدِينُ لَهُمْ هَذِهِ الْمُبَادَرَةُ،
(بِفِكْرَةٍ أَوْ بِتَصْوِيبِ مَعْلُومَةٍ أَوْ بِنَصِيحَةٍ)، بَأَنْ تَفْتَحَتْ
مَشْرُوعًا وَخُطَّةً، وَبِجَمِيلِ كُلِّ الذِّينِ أَتَاحَ نَفْسَهُمْ لَوَجَاهَتِهَا،
وَدَعَمَهُمُ الْمَادِيَّ، أَنْ خَرَجَتْ إِلَى النُّورِ وَالْعَلَنِ.^(١٣)

^(١٣) وَتَذَكُّرُ مِنْ هَؤُلَاءِ «الصُّنْدُوقِ الْعَرَبِيِّ لِلتَّقَافَةِ وَالْفُنُونِ (أَفَاقِ)» الَّذِي وَفَّرَ
التَّمْوِيلَ الْإِبْتِدَائِيَّ لِهَذِهِ الْمُبَادَرَةِ، وَ«مُعْهَدِ الْعَلَفَاتِ الثَّقَافِيَّةِ الْخَارِجِيَّةِ (ifa)»
الَّذِي وَصَلَ دَعْمَهَا.

صِفْرٌ عَنِ عَمْدٍ